

"المشروع" في مشروع إسلامية المعرفة

نحن في مشروع إسلامية المعرفة نفضّل استعمال مصطلح "مشروع" في عنوان عملنا هذا، وذلك لأمر مقصود ولدلالة نعيها، مع أن الذين كتبوا في المشروع وعنه، سلباً أو إيجاباً، استعملوا مصطلحات عديدة، منها فكرة إسلامية المعرفة، ونظرية.. وتيار.. وحركة.. ومدرسة.. وخطة.. وبرنامج.. وشعار.. الخ. ومن الملاحظ أن كثيراً من الكتاب والباحثين يستعملون واحداً من هذه المصطلحات في العنوان ثم لا يوضحون دلالة المصطلح، وبالتالي لا يبررون استعماله. وأحياناً يستعملون المصطلح في العنوان، ثم يستعملون في المتن مصطلحاً مختلفاً تماماً، دون تبرير أيضاً. وربما يستعملون أكثر من مصطلح في آن واحد والواحد في مكان الآخر. وفي بعض هذه الحالات لا يبدو أن ثمة مفهوماً محدداً يتحدث عنه الكاتب، وفي حالات أخرى يبدو أن الكاتب يفترض أن الموضوع هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مزيد بيان.

ونحن في إسلامية المعرفة لا ننكر صحة استعمال المصطلحات الأخرى، فلكل منها مكانه ودلالته حسب سياق الكلام. لكننا نفضّل استعمال مصطلح "مشروع" ليكون عَلماً وعنواناً مميزاً للنشاطات والجهود النظرية والعملية التي تتم في إطار إسلامية المعرفة. وسوف نشير في هذه الكلمة إلى تبريرنا لهذا الاختيار، دون أن نغيب على الآخرين اختياراتهم، وبخاصة عندما تكون اختياراتهم مقصودة لذاتها ومشفوعة بتبريرهم لها. ونبدأ بذكر عددٍ من الأمثلة للاستعمالات المنتشرة لكلمة مشروع.

مشروع إسلامية المعرفة هو أمر مشروع، يعتقد رواده أن "الشريعة" تفرضه، ولا يقع ضمنه شيء لا تجيزه الشريعة، أي أنه لا يحتوي على شيء غير مشروع. والأمر المشروع أو الشيء المشروع هو ما فرضته الشريعة، فأصبح حكمه الشرعي الوجوب أو الندب أو الإباحة؛ وغير المشروع ما لم تسمح به الشريعة، فأصبح حكمه الشرعي مكروهاً أو محرماً. ولا شك أن أي كلام عن خطط النهوض الإسلامي وبرامجه وجهوده لا بد أن يقع ضمن الدائرة الشرعية، فأبي برنامج في هذا المجال هو أمر مشروع من هذا الباب. ومع أن المضامين الشرعية أو المشروعة في المشروع، في مجال

التجديد والاجتهاد الفقهي الفكري والحضاري، ليست جديدة بالضرورة، ولم "يُشرع" فيها في هذا العصر فقط، بل كانت هذه المضامين جزءاً من حركات الإصلاح والتجديد في التاريخ الإسلامي، مع ذلك فإن مشروع إسلامية المعرفة المعاصر هو محاولة هذا الجيل من أبناء عصرنا الإسهام في حركة التغيير والنهوض الحضاري للأمة، من منطلق التجديد والإصلاح الفكري.

وعندما تقرر جهة معينة بناء جسر أو فتح نفق أو إنشاء مدينة، فإنها تضع في البداية مشروعاً؛ أي خطة مقترحة تتضمن مواصفات محددة، وربما تسبقه دراسة جدوى لبيان قيمة المشروع بعد إنجازه. ومن ذلك أيضاً أي كلام عن المشروعات الاقتصادية التي تسعى إلى تحقيق أهداف التنمية في المجتمع. وفي مثل هذه الأمثلة يبقى المشروع مشروعاً ما لم يتم إنجازه، وبالتالي يبقى مجال التعديل والتطوير في مخططاته مفتوحاً حسب ما تقتضيه تطورات التنفيذ ومراحله ومستجداته.

ومشروع البحث هو خطته التي تتضمن فكرته الأساسية وأهدافه أو الأسئلة التي ينوي الإجابة عليها، وطريقة البحث والفترة المقدرة لإنجازه، ومنهجيته ونوعية البيانات التي سوف يجمعها ويحللها الباحث ويتوصل من خلالها إلى النتائج المرجوة للإجابة عن الأسئلة والمساعدة في تحقيق أهداف البحث. ويقدم هذا المشروع عادة إلى مؤسسة أكاديمية أو مركز للبحوث لاعتماده والموافقة عليه أو تمويله. وعند إنجاز البحث أو الدراسة على هذا الوجه، فإن تقرير البحث يقدم إلى الجهة المعنية لاتخاذ قرار إداري أو عملي أو منح درجة علمية لصاحب البحث أو للنشر في الدوريات المتخصصة في نشر نتائج البحوث.

والمشروع أمرٌ شرعٌ به ولم يكتمل بعد، فمشروع القانون هو خطة أو برنامج مقترح لوضع قانون جديد أو تعديل قانون معمول به فإذا تمت مناقشته من السلطة التشريعية وأُجيز أصبح قانوناً. وكذلك الأمر في مشروع الدستور وهو أصل القوانين، ومشروع النظام وهو تفريعات عن القانون. وفي هذا يختلف معنى المشروع عما يدخل في أمر الشريعة أو التفريعات التي تضعها السلطة التشريعية وتراقب تنفيذها، إذ يكون الأمر عندها ضمن معنى الآية "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً".

والمشروع هو إحدى طرق التعليم Project Method التي استخدمها التربويون من أتباع ديوي، والنظام المدرسي في المشروع ينظم مناهج التعليم بطريقة تسمح للمتعلمين اختيار نشاطات معينة والإجابة عن أسئلة معينة،

بغض النظر عن مرحلة النمو العقلي للمتعلمين أو متطلبات المواد التعليمية أو قضايا المجتمع.¹ ويشترك في المشروع مجموعة من المتعلمين يتعاونون في تنفيذه. وقد تعددت استعمالات مفهوم المشروع في المجال التربوي وبخاصة في أدبيات التربية البريطانية والفرنسية، سواء على مستوى تطوير المناهج أو مسارات التعليم أو بنية النظام التعليمي بوجه عام.²

وقد انتشر استخدام مصطلح "المشروع" في كتابات المعاصرين، ليدلّ على الاتجاه الفكري أو المدرسة الفكرية العامة المتميزة عن مدارس أخرى في الإصلاح السياسي أو الاجتماعي، أو على الجهود التي يبذلها مفكر أو كاتب والإنتاج الذي يقدمه إلى القراء، أو الجهود التي تبذلها مؤسسة فكرية أو ثقافية وأدبياتها المنشورة التي تعبّر عن اتجاهاتها أو أهدافها.

فبعد استقلال الدول العربية، ساد اتجاه عام في الإصلاح والتنمية وإعادة البناء، اعتمد فكرة الدولة القومية، والاقتصاد الحر "الليبرالي" أو الموجه الشمولي "الاشتراكي"، وعُرف هذا الاتجاه "بالمشروع القومي"، وكانت جهود جمال عبد الناصر في مصر مثلاً عليه، فيقال مثلاً: لقد فشل المشروع القومي الذي قاده عبد الناصر، في تحقيق أهدافه في الوحدة العربية أو في تحقيق التنمية الاقتصادية أو في تمكين الأمة العربية من تحرير قرارها.. ويقال أيضاً إن الصحة الإسلامية التي أخذت بالانتشار بعد هزيمة العرب في حزيران عام 1967 تحولت إلى تيار سياسي يحاول تقديم البديل الإسلامي أو "الحل الإسلامي"، ثم أخذ الإسلاميون يكتبون عن "المشروع الحضاري الإسلامي"...

وعلى مستوى الأفراد بدأ الدكتور محمد عابد الجابري منذ أواسط الثمانينيات يكتب في نقد العقل العربي وتحليل بنيته، ضمن مشروع فكري³ سُمّي "مشروع الجابري"، يرى بعض الناقدين له إنه مشروع يساري في نقد التراث

¹ Passe, Jeff. *Elementary School Curriculum*. Boston: McGraw-Hill College. 1999, pp 67-68

² الدريج، محمد. مشروع المؤسسة والتجديد التربوي في المدرسة المغربية. الرباط: سلسلة دفاتر في التربية (2) 1996، ص5-14.

³ كتبت مقالات عديدة في تقويم ومناقشة مشروع الجابري. انظر مثلاً:

الطائي، محمد باسل. حول تكوين العقل العربي: دراسة نقدية لطروحات محمد عابد الجابري. آفاق الثقافة والتراث. السنة الخامسة العددان 22 و23 نيسان 1998 ص38-58.

عبدالله، عبد الحفيظ. مشروع نقد العقل العربي للجابري: الإطار التاريخي والسياق النظري. مجلة رؤى، العدد 22، يونيو ويوليو 2001، ص22-24.

الإسلامي، ويرى د. فهمي جدعان أن الجابري حاول أن يتتبع خطوات مشروعه في نقد التراث مع فارق أساسي أن "مشروع جدعان" ينطلق من الرؤية الإسلامية الداخلية، في حين أن الجابري ينطلق من رؤية ليبرالية خارجية. وهكذا لمحمد جابر الأنصاري مشروعه الفكري الخاص به،⁴ وعادل حسين هو "الرجل المشروع" أو "المشروع الرجل"⁵. الخ ومثل ذلك يقال عن بعض المؤسسات التي عمل في تطوير رؤيتها مجموعة من المفكرين والكتاب بشكل لا ينسب المشروع إلى مفكر بعينه، وإنما ينسب المشروع إلى المؤسسة، فيقال مشروع المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إصلاح الفكر الإسلامي وإسلامية المعرفة.

وقد لاحظ الدكتور عبد المجيد النجار⁶ عند دراسته لمشاريع النهوض الحضاري صعوبة في تسمية حركات الإصلاح والنهضة؛ إذ أن مصطلح الحركة والوجهة والتيار والرؤية وغيرها التي استخدمت لم تكن تعبر عن الدلالات المطلوبة في جهود الإصلاح، ورأى أن الأنسب استخدام مصطلح "المشروع" لوصف جميع أصناف الرؤى والحركات والجهود الإصلاحية، فيقال مشروع التحضر أو المشروع النهضوي أو المشروع الإصلاحي. ويرى في هذا الاختيار عملاً بالأصل اللغوي لكلمة شرع التي تجمع في مادتها بين معاني السعة والانضباط والبيان، واستثناساً باستعمال الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه.." (الشورى: 13) فالذي شرعه هو "دين نوح ومحمد وما بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه". والمراد دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه ويوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها متفاوتة قال الله تعالى: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً..⁷

4 نادي الخريجين ومؤسسة الأيام للصحافة في البحرين. ملتقى المفكرين العرب لمناقشة فكر الدكتور محمد جابر الأنصاري. البحرين 13-14 يونيو 1999 مجلة البحرين الثقافية، عدد 23 يناير 2000، ص 97-117. يقول د. الأنصاري في كلمته في الملتقى: وتتلخص "معالم مشروعني الفكري.. في ترسيخ البناء المعرفي للفكر العربي الذي ما زال يغلب عليه الأيديولوجي.." ص 99.

5 العلواني، طه جابر. عادل حسين.. "المشروع" مجلة الحوار العدد 65، السنة الثالثة عشرة صيف 2001م ص 37-39.

6 النجار، عبد المجيد عمر. مشاريع الإسهاد الحضاري. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ص 8-9.

7 الزمخشري، أبو القاسم جار الله. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع المجلد

وللفخر الرازي⁸ في تفسير الآية نفسها "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً" كلام مماثل، يقول: " .. يجب أن يكون المراد شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها متفاوتة قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع.. كأنه قيل ما ذاك المشروع؟ فقيل هو إقامة الدين.. وفي تفسير الخازن⁹ وتفسير القرطبي¹⁰ ما يشبهه.

وقد ميّز النجّار بناءً على اختياره ذلك بين المشاريع المختلفة على أساس المنهجية المشتركة الأساسية في صنف من المصلحين تشملهم فكرة رئيسية هي العمود الفقري للمشروع، فجمع حركة رئيسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركة السنوسية والحركة المهديّة ضمن مشروع نهضوي واحد سمّاه "المشروع السلفي"، وجمع جهود رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا والكواكبي وابن باديس ضمن "مشروع التحرر"، وإن بدأ هذا المشروع تقليداً غريباً ثم نحا منحى سلفياً، كما جمع جهود حركة الإخوان المسلمين في العالم العربي والجماعة الإسلامية في القارة الهندية وما ارتبط بهما وتولّد عنهما في سائر أنحاء العالم باسم "مشروع الإحياء الإيماني الشامل". ومع ذلك فإن النجّار أشار إلى وجود مشاريع أخرى للتحضر ضمن المشروع الإسلامي لكنها في رأيه لم تكتمل بنيتها التصورية والواقعية ولم تنهياً شروط عرضها ومحاکمتها فهي مشاريع في طور التكوّن. كما أشار إلى ما سمّاه مشروع الإصلاح الفكري الذي يقوم على إصلاح منهجية التفكير بوصفه سبيلاً إلى قيام التحضر الإسلامي كما تكونت بذوره عند محمد إقبال وتطوّرت عند مالك بن نبي ويرعى المشروع حالياً المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتمثل الحركة التي تتبناه مشروعاً متكاملًا.¹¹

هذه بعض الأمثلة لاستعمالات مصطلح المشروع. ويلاحظ أن الأصل اللغوي يشير إلى "أمر يُهَيَأ لِيُدْرَس ويُقَرَّر.. وجمعه مشروعات"¹² وهو بشكل عام طريقة فيها الظهور والوضوح والسعة.. وأمر يتم المشروع به أي يبدأ

8 الرازي، فخر الدين. تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب. بيروت: دار الفكر، 1995 ص 157

9 الخازن، علاء الدين علي البغدادي. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل. الجزء . السادس بيروت دار الفكر 1979 ص 119.

10 القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. الجزء 15 القاهرة: دار الكتاب . العربي 1967 ص 11.

11 النجار مرجع سابق ص 11.

12 مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط ج 1، الطبعة الثالثة بدون تاريخ ص 498.

الدخول والخوض فيه.. وتفرضه الشريعة.¹³ وهو أمر مفتوح للإضافة والتعديل باعتباره ليس شيئاً ناجزاً، بل مقترحات تحتاج إلى المراجعة والحوار حولها. ويتضمن المشروع عناصر بينها تكامل وانسجام، ويتطلب البدء في مشروع معين وعياً على عناصر الواقع القائم وقدرة على تقويمها، ورغبة في تطوير هذا الواقع وتغييره، وإصالة في تصور المستقبل واستشرافه، كما يتطلب جرأة في اتخاذ القرار وربما شيئاً من المغامرة أو المخاطرة في توفير الموارد اللازمة للمشروع، فقد يكون المشروع بالنسبة للفرد "مشروع العمر" وكثيراً ما يقفز هذا المغامر الذي تجرأ واقترح المشروع ليكون من القلائل الذين يشار إليهم ويستمتع لهم بسبب ما تمخّض عن المشروع من نجاح، وقد يكون فشل المشروع سبباً في معاناة صاحبه طوال ما تبقى من عمره.

مشروع إسلامية المعرفة هو عملية مستمرة النمو، تتطور عناصره بقدر ما يبذل فيها من جهد ويتحقق فيها من نجاح، وكل نجاح يقود إلى مزيد من النجاح، وكل تعثر يقود إلى إعادة النظر، فالمشروع ليس مقولات ثابتة محددة، وإنما هو منظور معرفي في طور البناء والنمو والاختبار ويخضع بالضرورة للمراجعة المستمرة.¹⁴ ولذلك، فإنه بقدر ما يلزم من تحديد دلالات للمفهوم الخاص بمشروع إسلامية المعرفة، يبقى الباب مفتوحاً لإعادة التعريف والتحديد، وسوف تظهر جوانب من التعريف يوم تصبح ممارسة البحث ضمن النموذج المعرفي الجديد أمراً شائعاً.

إن مشروعاً في حجم مشروع إسلامية المعرفة لا يمكن أن يكون مشروع مفكر أو مؤسسة، ولكنه مشروع الأمة بكاملها، وإذا كانت مؤسسة مثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي تحمل هذا المشروع وتسعى في أمره، فإنما تحمله لتقدمه إلى الأمة، وبخاصة إلى النخبة المختارة من أهل الفكر والثقافة وأساتذة الجامعات والباحثين ذوي التأثير في برامج التكوين والتوجيه والتربية والإعداد بحكم انعكاس آثار أعمالهم ومواقفهم على قطاعات الأمة الأخرى، والمشروع مقدم إلى هؤلاء للنظر فيه وتبنيه، كاملاً أو جزئياً.

وسيكون المعهد سعيداً عندما تتقدم بعض الجهات لتتبنى قليلاً أو كثيراً من عناصر المشروع، وبطريقتها ومنطقها واجتهادها، فالقائمون على المشروع ليس لهم مصلحة شخصية أو فئوية في هذه الحياة الدنيا، إلا أن يروا أمتهم

¹³ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. لسان العرب. انظر لسان اللسان: تهذيب لسان العرب، عناية المكتب الفقائي لتحقيق الكتب بدار الكتب العلمية في بيروت بإشراف عبد مهنا الطبعة الأولى 1993.

الجزء الأول ص 665-666.

¹⁴ العلواني، طه جابر. إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص:9.

شرعت في خط النهوض والتغيير، بعد فترة طويلة من التخلف والضعف والتبعية. نسعد لو أخذ السياسيون بهذا المشروع ليعينوا قادة الفكر والثقافة على أداء مهماتهم في بناء العقول والنفوس. ونسعد لو أخذت به قيادات الحركات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية لإشاعة الوعي وتنقية الثقافة وإصلاح الفكر. ونسعد لو اقتنع به رجال المال والاقتصاد لتوفير الدعم المالي وتخصيص الأوقاف التي تدر الجرايات اللازمة لاستمرار المشروع وديمومته. ونسعد أن تقوم مؤسسات كثيرة متخصصة في المشروع تتعاون فيما بينها على التعجيل في تحقيق أهدافه، وعلى تهيئة الأسباب لتنجح المؤسسات المتخصصة في ميادين الإصلاح الأخرى في تحقيق أهداف النهوض الحضاري للأمة.

ولمّا كانت صدور بعض الناس لا تنشرح لهذا المشروع، ويتطوع بعضهم للوقوف في طريقه ووضع العقبات أمام مسيرته، فإن ذلك سيؤدي إلى التأخر في تحقيق أهدافه وتكريس التخلف في واقع هذه الأمة، ولكن إلى أجل لن يطول بإذن الله، أما نحن فإن المعوقات لن تثني عزمنا على المضيّ فيه، فذلك شأن كل مشاريع الإصلاح والنهوض، وهذا قدرُ المجددين والمصلحين.

وعلى الله قصد السبيل، ومنه سبحانه نستمد الرشد والهدى ونسأله العون والتوفيق.